



لا شك أن الأرزاق التي يحصل عليها الإنسان في حياته هي مجرد قرض يفترضه من مالك هذا الكون، بطريقة أو بأخرى، بيسر أو بعسر، ثم إما يعيده له، بعد أن يتوفاه الله، إذا لم يكن عنده ذرية، فيقوم باقتراضه آخرون، أو يتركه للذرية لتعيده، عاجلاً أم آجلاً، إلى ربها أيضاً.

عبارة أخرى، فإن أموالنا وممتلكاتنا الزائدة عن حاجتنا الاستهلاكية ليست لنا أبداً، خاصة، وكما يقول المثل: ليس للكفن جيب نضع فيه مدخراتنا عندما نأوي إلى اللحد دون رجعة.

«ما حدش واحد منها حاجة»، مع ذلك يكتنز الإنسان المال، ويتهافت على جمعه حتى الرمق الآخرين، مع العلم أنه قد لا يستفيد منه، أو يستغله، أو يستمتع به في شيء، أو حتى لا يورثه لأولاده في أحيان كثيرة.

كم أشعر برغبة شديدة للضحك المجلجل على عبيد المال والرزق الذين لا هم لهم في هذه الدنيا سوى تكديس المزيد من النقود والممتلكات، كما لو أنها ستعيلهم بعد الموت. فهذا العجوز أو ذاك المريض يقاتلك، ويقاضيك، ويحول حياتك إلى جحيم من أجل دراهم، مع العلم أنه يمتلك الملايين منها، وليس لديه حتى تلذ يستفيد منها بعد مماته، مع ذلك نجده يغض علىها بالنواخذ، وهو يعلم أن شهوراً أو ربما أياماً فقط تفصله عن الموت المحتم.

أعرف شخصاً ثرياً بلا ذرية يعاني من عشرين مرضًا أو ربما أكثر، وبعضاها خطير جداً، وبالكاد يستطيع أن يمشي بسبب الجروح المتقطعة في رجليه بسبب مرض السكر.

لكن صاحبنا لا هم له سوى ملاحة سكان البناء التي يملكون فيها، وتنفيص حياتهم من أجل الحصول منهم على

بعض الدريهمات بطرق ملتوية، فمرة يتهم جاره بأنه وضع مدخنة قريبة من نافذته، ومرة يتهم آخر بفتح ثغرة صغيرة في الجدار للتهوية.

وما أن يعرض عليه المشتكي عليهم بعض النقود، حتى يتوقف عن الشكوى فوراً. وما أن يتوقفوا عن سد بوذه بالفلوس حتى تثور ثأرته، فيتوجه إلى السلطات على عكازيه بطريقة هستيرية هزلية كي يشتكى لتحصيل بعض القروش.

كم كان بودي أن أعبر عن حالة صاحبنا المرضية بشكل أكثر كوميدية، لكن لا بأس، فإن الأديب الفرنسي الشهير مولير سخر من هذا الصنف المضحك من البشر بشكل رائع في مسرحية «البخيل».

آه كم فسدت حياتنا في عصر الثروة والتحصيل المادي العظيم! الكل في عجلة من أمره، فتجد مثلاً رجل أعمال غارقاً في الثراء حتى أذنيه، يبتلع وقت الغداء سندويشه هزيلة بلاوعي، كما تبتلع الأفعى فريستها، وهو يفكر بالصفقة القادمة أو المزاح المرجوة.

صحيح أننا «نأكل لنعيش، ولا نعيش لأنأكل»، لكن الله عز وجل نصحنا بأن نأكل «من طيبات ما رزقناكم»، أو بالأحرى الاستمتاع بالطيبات، لكن، للأسف غدونا عبيداً للمال الذي نستقتل كي نجمعه ثم نموت تاركيه وراءنا. كم ألهف لأعرف كيف يفكر الأثرياء من جنسبني آدم! ما هي نظرتهم للرزق وللحياة والموت؟

الآن يشعرون بغصة مخيفة عندما يتذكرون أن كل ما جمعوه وكدوه من ممتلكات ستؤول إلى غيرهم بعد سنوات قلائل؟ هل يدركون أن ما يملكونه هو ما يصرفونه فقط؟

هل يعلمون أن ما لا يصرفونه سينتهي في أيدي غيرهم؟

هل يعلمون أن أولادهم قد يبددون كل ما ورثوه في سويات على أسف الأمور وأحقارها؟

هل فكروا أن كل ذلك الركض وراء المال نهاية عبثية، وأن كل شيء ينتهي في لحظة؟.

كم أضحكني أحد الإقطاعيين المسنين ذات مرة وهو يدلني على ألف الدونمات التي يمتلكها من الأراضي: «فهذه الهاكتارات المتراصة الأطراف لي، وتلك أيضاً، راح الإقطاعي يحدثني متباهياً بأملاكه الشاسعة.

لكني ما لبست أن سأله بنوع من السخرية: «ألا تعتقد أن تلك الفدادين الهائلة من الأراضي ليست ملكك، بل مؤجرة لك إلى حين، أو تكون في عهديك لفترة محددة لا أكثر ولا أقل، ثم تنتقل ملكيتها إلى شخص آخر بعد سنوات معدودة، وهكذا دواليك، فالملك لله وحده؟» فصمت الإقطاعي قليلاً، وبدت على وجهه علامات الغضب، كما لو أني شركت في أحقيه امتلاكه لتلك الأرضي، أو نافسته على ملكه الوفير. لكنه سرعان ما اعترف مجبراً بأن الأرض باقية وهو فان قريباً.

ربما تذكر حينها بيت أبي العلاء المعربي الشهير: **«خف الوطء ما أظن أديم الأرض** إلا من هذه الأجسادِ»**.

وذات يوم سألت ابنتي عن صديقتها الثرية جداً: «كيف تشعرين وأنت تصادرين طفلة غنية جداً جداً؟»، فضحكـت بطريقة فلسفية معبرة وقالـت: «تصور يا أبي أن صديقـتي لديـها من الأماكن الخلاـبة الكـثير الكـثيرـ! لكن المـضحـكـ فيها أنها تمـضـي وقتـها في غـرـفة نـومـها بـمـنـجـعـاتـها الخـاصـةـ وهي تـحـادـثـ صـدـيقـاتـها عـبـرـ الانـتـرـنـتـ. وبالـكـادـ تستـمـتـعـ بـمـنـاظـرـ المـنـجـعـاتـ منـ شـواـطـيـ وـمـزـارـعـ وـمـصـحـاتـ وـقـصـورـ وـفـلـلـ، وـمـعـ ذـلـكـ فـهـيـ وـأـهـلـهـاـ تـطـمـعـ بـالـمـزـيدـ وـالـمـزـيدـ مـنـ الـمـمـتـلـكـاتـ!ـ»

عـجـيبـ أمرـ هـذـاـ الإـنـسـانـ الـذـيـ يـفـتحـ عـشـرـاتـ الـحـسـابـاتـ الـبـنـكـيـةـ، وـبـيـنـيـ الـقـصـورـ وـالـفـلـلـ وـالـأـبـرـاجـ الشـاهـقـةـ وـنـاطـحـاتـ السـحـابـ، وـيـقـيمـ الـمـشـارـيعـ الـهـائـلـةـ، وـيـشـتـرـيـ مـئـاتـ الـعـقـارـاتـ وـالـمـزـارـعـ وـحتـىـ الـجـزـرـ هـنـاـ وـهـنـاكـ، لـكـنـهـ لاـ يـجـدـ الـوقـتـ كـيـ يـسـتـمـعـ بـهـاـ،

فيمضي لياليه في سرير طوله متراً وعرضه متر في حجرة كالزنزانة.

فإن الإنسان مهما امتلك من قصور وأراضٍ شاسعة وعقارات لن يكون بمقدوره سوى النوم على مساحة مترين. وقد لا يجد من بين تلك المساحات مكاناً ليحتضن جثته فيما لو انفجرت به الطائرة أو مات في البحر. ولن يملأ أكثر مما تقدر عليه معدته، ولو كان يتحكم بتجارة القمح في العالم.

هل سيتوقف أحد عن اللهاث وراء المال والممتلكات بعد هذا المقال؟ بالطبع لا. لكن فليعلم اللاهثون على الأقل أن المال الذي لا تنفقه ليس لك!

القدس العربي

المصادر: